الإشاعات الكاذبة
وكيف حاربها الإسلام

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk, com.

د. محمد سيد طنطاوى

الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام

دار الشروق

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.

وبعد: فقد اقتضت سنة الله ـ تعالى ـ فى خلقه، أن يجعل هذه الحياة الدنيا، نزاعا موصولا بين الخير والشر، وصراعا مستمرا بين الحق والباطل، وخلافًا قلما يهدأ بين الأخيار والأشرار، وبين العقلاء والسفهاء، وبين المصلحين والمفسدين.

وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

أى: ولولا أن الله ـ تعالى ـ يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، ولعمها الخراب؛ لأن أهل الفساد إذا تُركوا من غير أن يُقاوَمُوا، استطارت شرورهم، وتغلبوا على أهل الصلاح والاستقامة، وتعطلت مصالح الناس، وانتشر الفساد فى الأرض.

فالجملة الكريمة تأمر الأخيار فى كل زمان ومكان، أن يقفوا فى وجوه الأشرار، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تَحولَ بينهم وبين الفساد والطغيان.

وإن من أقبح القبائح التى سلكها الأشرار لمحاربة الأخيار: قذفُهم لهم بما هم بريئون منه، وإشاعتهم للأكاذيب التى يتنزه عنها هؤلاء الأخيار.

وأنت تقرأ سيرة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فترى أعداءهم قد أشاعوا عنهم الأراجيف الباطلة، والقبائح المنكرة.

فقد وصفوهم بالضلال، وبالكذب، وبالجنون، وبالسفه، وبالتكبر، وبالغرور، وبالإفساد فى الأرض، وبغير ذلك من الأقاويل الباطلة، ومن الشائعات الكاذبة. وما قصد أولئك الأعداء للرسل من وراء ذلك، إلا صرف الناس عن الحق، وحسدهم للرسل الكرام على ما آتاهم الله - تعالى - من فضله.

ولم يكتف أعداء الحق والفضائل بإشاعة السوء حول الرسل الكرام، بل حاربوا - أيضًا - ما جاءوا به من هدايات، ومن أخلاق كريمة، ومن عقائد قويمة، ومن سلوك حميد.

وإذا كان تصديق الإشاعات الكاذبة فى كل زمان ومكان، يؤدى إلى النكبات التى تلحق بالأفراد والجماعات، فإن تصديقها فى زماننا هذا الذى تعددت فيه وسائل الاتصالات، وصار العالم كله، كأنه مدينة واحدة، ما يجرى فيه فى الشرق يعلمه أهل الغرب، وما يجرى فى الغرب يعرفه أهل الشرق فى أوقات سريعة محدودة.

أقول: إذا كان الأمر كذلك فإن تصديقها فى زماننا هذا، يكون أشد شرًا، وأقبح مصيرًا، وأسوأ عاقبةً، ولا سيما فى أيام الحروب والأزمات.

ولقد قص علينا القرآن الكريم من الآثار السيئة التى تترتب على تصديق الإشاعات الكاذبة، ما فيه العبرة لمن يعتبر، وما فيه الذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ويكفى للدلالة على ذلك أن تصديق آدم - عليه السلام - لإبليس عندما حرضه على الأكل من الشجرة التى نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها، أدى إلى خروج آدم من الجنة.

قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه: ١١٥ - ١٢٢).

ولقد وضحنا فى بحثنا هذا عن الإشاعات الكاذبة، أن من أنجح الوسائل للقضاء عليها: التثبت من صحة ما يُقال وما يُسمع، وردُّ الأمور إلى مصادرها الصحيحة، وسؤالُ أهل العلم عما خفى من أحكام، وكتمانُ هذه الإشاعات وعدم ترددها، وقذفها بالحقائق الثابتة، وبالأدلة القاطعة التى تهدمها وتبطلها وتجعل كل عاقل يسخر من مروجيها، وتغليبُ حسن الظن بين أفراد المجتمع، فإن سوء الظن - دون موجب له - قبيح بالعقلاء.

وإذا كان أعداء الحق والفضائل فى كل زمان ومكان، قد نشروا الإشاعات الكاذبة حول الأخيار الأطهار بأساليب خبيثة، وبمسالك خسيسة، وبمكر سيئ وبتعمد لإلحاق الأذى والضرر بغيرهم.. فإن العقلاء الشرفاء قد ردوا على هذه الإشاعات بما يبطلها ويزيلها ويمحقها، ولكن بالمنطق الحق، وبالقول الصدق، وبالحجة الساطعة، وصدق الله إذ يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: ١٨).

نسأل الله - تعالى - أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة - صباح الأربعاء
١١ من ربيع الأول سنة ١٤٢١هـ
١٤ من يونيو سنة ٢٠٠٠م

محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

الإشاعات الكاذبة موجودة منذ فجر التاريخ

- ١ -

لفظ الإشاعات: جمع إشاعة، وقد جاء فى المعجم الوسيط (جـ ١ ص٥٠٣) أن الإشاعة: هى الخبر ينتشر ولا تثبت فيه.

والمقصود بالإشاعات - فى الأعم الأغلب: التأثير السلبى فى النفوس، والعمل على نشر الاضطراب وعدم الثقة فى قلوب الأفراد والجماعات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الوعى فى أمة، فتأمل أثر الإشاعات فيها، فإذا رأيتها تُصدِّق كل ما يُقال لها، فاعلم أنها أمة مازالت الغفلة متفشية فيها؛ وذلك لأن أسرع الأمم تصديقًا للإشاعات والأراجيف هى الأمم الساذجة، التى لا قدرة لها على نقد الأخبار، وتمحيص الأنباء.

وقد تحمل الإشاعة كذبها بوضوح، ولكن كثيرا من الناس - لجهلهم أو لسوء نياتهم - لا يفطنون إلى هذا التكذيب، أو يفطنون لهذا التكذيب، ولكنهم يريدون نشرها لحاجة فى نفوسهم.

أما إذا رأيت فردًا من الأفراد، أوجماعة من الجماعات، أو أمة من الأمم، تتثبت من الأخبار التى تصل إليها، ولا تُصدق منها إلا ما تتأكد من صحته، فاعلم أنها أمة رشيدة، يكثر فيها العقلاء، ويقل فيها السفهاء...

يكثر فيها عدد الذين طهرت نفوسهم، واستقامت أفكارهم، واتسعت عقولهم؛ لأنهم بسبب ما أعطاهم خالقهم - عز وجل - من علم نافع، لا تروج فيهم الإشاعات، وإنما هم يعملون بقول الله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

-٢-

والإشاعات الكاذبة موجودة منذ وجود الإنسانية، ينشرها الأعداء ضد من يعادونهم؛ لإضعافهم، أو لإنزال الهزيمة بهم، أو لإزالة نعمة منحها الله ـ تعالى ـ لهم أو لغير ذلك من الأسباب التى يراها كل خصم أنها تساعده على الانتصار على خصمه.

ولعل أول من فعل ذلك هو «إبليس» لإغواء آدم ـ عليه السلام ـ!!

وقصة آدم ـ عليه السلام ـ قد وردت فى القرآن الكريم فى سور متعددة منها: سور: «البقرة» و«الأعراف» و«الحجر» و«الإسراء» و«الكهف» و«طه»..

وهناك آيات كريمة تحدثت عن كيفية خلق آدم، وأخرى تحدثت عن أمر الملائكة بالسجود له، وثالثة حكت موقف إبليس من هذا الأمر، ورابعة ذكرت استخلاف آدم فى الأرض، وخامسة تحدثت عن إسكانه فى الجنة، وسادسة ذكرت إغواء إبليس له، وسابعة تحدثت عن تحذير بنى آدم من الشيطان.

-٣-

ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن إغواء إبليس لآدم ـ عليه السلام ـ عن طريق الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: الآيتان ٣٥، ٣٦).

أى: وبعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ وامتثلوا أمرنا جميعًا ما عدا إبليس، قلنا لآدم على سبيل التشريف والتكريم: يا آدم، اسكن أنت وزوجك حواء الجنة، وقد أبحنا لكما أن تأكلا من ثمارها ومطاعمها أكلاً هنيئًا رغدًا، وفى أى مكان منها، واحذرا أن تأكلا من هذه الشجرة التى حددتها لكما، وأمرتكما بعدم الأكل منها؛ لأنكما لو أكلتما منها كنتما من الظالمين.

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾: القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل منها، إذ فى النهى عن الاقتراب من الشىء، نهى عن التلبس به من باب أولى.

وقد تكلم المفسرون عن اسم هذه الشجرة، فقيل: هى التين. وقيل: هى العنب، إلا أن القرآن الكريم لم يذكر نوعها، على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لا فائدة فى ذكره.

وقد أحسن الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ التعبير عن هذا المعنى فقال: «والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله ـ تعالى ـ نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها فأكلا منها. ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله ـ تعالى ـ لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البُرِّ ـ أى: القمح ـ، وقيل كانت شجرة العنب. وذلك علم إذا عُلِم لم ينفع العالمُ به علمَه، وإن جهله جاهل لم يضرَّه جهلهُ به».

ـ ٤ ـ

ثم بَيَّن ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

والفعل «أزل» من الإزلال، بمعنى الإزلاق والتنحية بعيداً عن الشىء. أى: فأوقعهما الشيطان فى الزلل؛ حيث خدعهما ووسوس لهما أن هذه الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها فيها الخير كله، فأطاعاه؛ فترتب على ذلك أن أخرجهما الله ـ تعالى ـ من الجنة التى كانا يتنعمان بخيراتها وثمارها. . وقال ـ سبحانه ـ للجميع: اهبطوا إلى الأرض متنافرين، متباغضين، يبغى بعضكم على بعض، ولكم فى هذه الأرض المنزل الذى تستقرون فيه إلى أن يُدرككم الموت.

ـ ٥ ـ

وفى سورة «الأعراف» نجد تفصيلاً أكثر، للإشاعات الكاذبة التى أشاعها إبليس لآدم، حول الشجرة التى نهاه الله ـ تعالى ـ عن الأكل منها، حيث قال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : وقال الله ـ تعالى ـ لآدم ـ عليه السلام ـ على سبيل التكريم : يا آدم اسكن أنت وزوجك حواء أفضل المساكن وهى الجنة ، وتناولا من ثمارها ما شئتما ، واحذرا أن تقتربا من هذه الشجرة ؛ لأنكما إن اقتربتما منها كنتما من الظالمين لأنفسكما ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة كما قال ـ سبحانه ـ بعد ذلك :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أى : فألقى إبليس الوسوسة ، أى : الحديث الخفى الذى يصرف الإنسان من الخير إلى الشر . .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ أى : فعل هذه الوسوسة ، وحرضهما على الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها ، لتكون عاقبة ذلك أن يفضحهما ، وأن يُظهر ما استتر من عوراتهما .

ولم يكتف إبليس بهذه الوسوسة السيئة ، بل نشر الإشاعات الكاذبة عن هذه الشجرة فقال ـ كما حكى الله عنه ـ : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

أى : قال لهما كذبًا وخداعًا : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة ، إلا كراهية أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين الذين يسكنون فى الجنة ولا يموتون !!

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة ، أو بالإشاعات الكاذبة ، بل أضاف إلى ذلك القَسَم المؤكد فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أى : وأقسم لهما بالأيمان المغلظة أنه لمن الناصحين لهما ، المخلصين فى الحرص على منفعتهما .

ونجح إبليس فى خداعه لآدم وحواء ، بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

ولفظ «فدلاهما»: مأخوذ من التدلية، وأصله: أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه ليشرب من مائها، فإذا ما أخرج الدلو، لم يجد به ماء.

والغُرور: إظهار النصح مع إبطان الغش، وأصله: من غررت فلانا إذا خدعته. والمعنى: أن إبليس بسبب ما أشاعه عن الشجرة التى نهى الله آدم وحواء من الأكل منها، من إشاعات كاذبة، استطاع أن يخدعهما، وأن يَنْزل بهما من الطاعة إلى المعصية، ومن الخير إلى الشر؛ لأنهما حين أكلا من الشجرة المحرمة، ظهر لهما ما يجب ستره من جسدهما وهما العورتان، فأخذا يلزقان من ورق شجر الجنة على عوراتهما لسترهما، وناداهما ربهما معاتبًا وموبخًا، قائلاً لهما: ألم أنهكما عن الأكل منها، وأقل لكما إن إبليس شديد العداوة لكما؟!

- ٦ -

وفى سورة «طه» - الآيات من ١١٥ - ١٢٣ -: تصوير بليغ حكيم لما وقع فيه آدم من خطأ بسبب نسيانه لأمر ربه، وبسبب تصديقه للإشاعات الكاذبة التى أشاعها إبليس حول الشجرة التى نهى الله - تعالى - آدم عن الأكل منها. وهذه الآيات هى قوله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾.

أى: والله لقد عهدنا إلى آدم، وأوصيناه ألا يأكل من شجرة معينة، من قبل أن نخبرك بذلك يا محمد، فنسى آدم العهد الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها، ولم نجد له عزيمة صادقة فى التذكر لما أمرناه به أو نهيناه عنه.

وبعد أن بين - سبحانه - أن الملائكة جميعًا قد أطاعوا خالقهم فى السجود لآدم، ما عدا إبليس وأنه - سبحانه - قد قال لآدم: إن إبليس عدو لك ولزوجك، فاحذرا من وسوسته وكذبه عليكما، لأنكما لو أطعتماه، فسيترتب على ذلك أن تخرجا من الجنة، التى فيها ما تشتهيانه من طعام لذيذ، ومن شراب سائغ، ومن ملبس جميل.

بعد كل ذلك قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾ .

أى : أن إبليس قال لآدم على سبيل الإغراء والوسوسة والإشاعات الكاذبة : يا آدم ، هل أدلك على الشجرة التى من أكل منها ، عاش مخلدا لا يدركه الموت ، وصار صاحب ملك لا ينتهى ولا يفنى ؟ !

وأطاع آدم إبليس ، وصدق ما أشاعه من إشاعات كاذبة عن الشجرة المحرمة ، ووقع آدم تحت تأثير عدوه إبليس فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة كما قال ـ سبحانه ـ بعد ذلك : ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴾ .

ـ ٧ ـ

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن تصديق الإشاعات الكاذبة ، يؤدى إلى الخسران ، ويفضى إلى الهوان ، وينشر العداوة والبغضاء بين الناس .

كما يرى فيها كيف أن إبليس لم ييأس من إشاعة الأقوال الكاذبة ، بل استمر فى الوسوسة لآدم بأن هذه الشجرة التى نهاه خالقه عن الأكل منها ، إذا أكل منها آدم عاش مخلدا ، وصار صاحب أموال لا نهاية لها ولا فناء ، وأن الله ـ تعالى ـ لم يمنعه من الأكل منها إلا كراهية أن يكون آدم من كبار الملائكة ، أو من الذين لا يدركهم الموت .

وهكذا نرى أن إبليس قد استعمل فى خداعة لآدم ـ عليه السلام ـ سلاح الإشاعات الكاذبة ، الذى يعد من أخطر الأسلحة فى سوء العاقبة لمن يصدق ما يقال له دون تمحيص أو تدبر أو تثبت .

جانب مما أشاعه المكذبون عن نبيهم نوح - عليه السلام -

- ١ -

من وسائل التسلية التى ساقها القرآن الكريم، لتثبيت قلب النبى - صلى الله عليه وسلم -: إخباره بأن ما أشاعه المشركون عنه من إشاعات كاذبة، يشبه ما أشاعه الأقوام السابقون عن أنبيائهم.

ومن الآيات القرآنية التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (سورة الذاريات: الآيتان ٥٢، ٥٣).

أى: الأمر - أيها الرسول الكريم - كما أخبرناك من أنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من رسول يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا، إلا وقالوا له - كما قال قومك فى شأنك - هو ساحر أو مجنون.

والمقصود بالآية الكريمة: تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من مشركى قريش؛ حيث بين له - سبحانه - أن الرسل السابقين قد كذبتهم أممهم، وأشاعوا حولهم الإشاعات الكاذبة التى لا حقيقة لها.

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية تسلية أخرى فقال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: أوَصَّى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول من ربهم، أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون؟!

وقوله - سبحانه -: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: إضراب عن تواصيهم، إضراب إبطال؛ لأنهم لم يجمعهم زمان واحد حتى يوصى بعضهم بعضا، وإنما جمعهم تشابه القلوب، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان.

ثم تسلية ثالثة نراها فى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٤، ٥٥).

أى: فلا تلتفت ـ أيها الرسول الكريم ـ إلى إشاعاتهم الكاذبة عنك، وداوم على التذكير لأتباعك، فإن التذكير لهم بما أوحيناه إليك، ينفع المؤمنين الصادقين.

ـ٢ـ

ومن الأنبياء الكرام الذين أشاع عنهم الجاحدون من أقوامهم الإشاعات الكاذبة: سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ.

وقد وردت قصته مع قومه فى سور متعددة منها: سورة الأعراف، ويونس، وهود، والمؤمنون، والشعراء، ونوح.

وتكرر اسمه ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم فى ثلاثة وأربعين موضعا، ومكث يدعو قومه إلى إخلاص العبادة لخالقه، ألف سنة إلا خمسين عاما.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت: ١٤).

ومع هذه المدة الطويلة التى قضاها نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، لم يؤمن بدعوته إلا عدد قليل منهم، بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠).

والذى يطالع كتاب الله ـ تعالى ـ بتدبر وتأمل ـ يرى أن نوحا ـ عليه السلام ـ قد استعمل أحكم الأساليب وأبلغها فى دعوته لقومه، ويكفيك منها قوله ـ تعالى ـ فى السورة التى سميت باسمه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا

﴿ (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ .

- ٣ -

ومع أن نوحا - عليه السلام - قد خاطب قومه بأسلوب منطقى بليغ يقنع العقول السليمة ، ويرضى العواطف النقية من رذائل الغرور والحقد والجحود ، إلا أن المترفين من قومه ، قد أشاعوا حوله وحول دعوته ، أنواعا من الإشاعات الكاذبة ، وألوانا من الأراجيف الباطلة ، لكى يصرفوا الناس عنه وعن دعوته ، ولكى يشككوا العامة فى صدقه .

فتارة يشيعون عنه أنه إنسان تائه عن طريق الحق ، بسبب ما أصاب عقله - فى زعمهم - من اضطراب وخلل .

ومن الآيات القرآنية التى حكت هذا المعنى ، قوله - تعالى - فى سورة الأعراف : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

- ٤ -

أى : والله لقد أرسلنا نبينا نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لخالقهم ، فقال لهم بتلطف وأدب : يا أهلى ويا عشيرتى اعبدو الله وحده ، فماذا كان ردهم عليه؟

كان ردهم أن وصفوه بالضلال ، وأشاعوا فيما بينهم أن نوحا - عليه السلام - قد أصيب بالمرض فى عقله .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : «وهكذا الفجار ،

إنهم - لانطماس بصائرهم - يرون الأبرار فى ضلالة، كما قال - تعالى - فى شأن الكافرين: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾».

وقد حكى القرآن الكريم، أن نوحا - عليه السلام - قد دفع عن نفسه وعن دعوته هذه التهم الباطلة، وهذه الإشاعات الكاذبة، بأن وصف نفسه بأربعة صفات كريمة:

أولها: أنه ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: هو لا يقول لهم ما يقول من عند نفسه، ولكن الله - تعالى - هو الذى أمره بذلك.

وثانيها: نراها فى قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ أى: أبلغكم ما أوحاه الله إلىَّ دون أن أكتم منه شيئًا.

وثالثها: نراها فى قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أى: وأتحرى فى إبلاغكم النصيحة التى فيها صلاحكم وسعادتكم.

ورابعها: نراها فى قوله - كما حكى القرآن عنه -: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: وقد أعطانى الله - بفضله وإحسانه - من العلم النافع ما لم يعطكم، فأنا أحذركم عن علم، وأنذركم عن بينة.

- ٥ -

وتارة نرى قوم نوح - عليه السلام - يشيعون عنه أنه لو كان نبيا حقا، لما كان مثلهم فى البشرية؛ لأن النبوة - في زعمهم - تتنافى مع البشرية. ولا يكتفون بهذه الإشاعات الكاذبة عنه، بل ينشرون فى كل مكان، أن الذين اتبعوا نوحا - عليه السلام - هم من سفهاء الناس وليسو من عقلائهم، ومن فقرائهم وليسو من أغنيائهم.

ومن الآيات القرآنية التى أكدت هذا المعنى قوله - تعالى - فى سورة «هود»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

أى: والله لقد أرسلنا رسولنا نوحا إلى قومه ليأمرهم بإخلاص العبادة لنا، ولكنهم قالوا له على سبيل السخرية، وعلى سبيل إشاعة السوء عنه: ما نراك يا نوح إلا بشرا مثلنا، ولا نرى فيك مزية تجعلك مختصا بالنبوة دوننا، فهم - لجهلهم وغبائهم - توهموا أن النبوة لا تكون فى البشر، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون النبى واحدا منهم حتى يفهموا عنه.

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم: وما نراك اتبعك إلا الذين هم فقراؤنا، وأقلنا شأنا، وأحقرنا حالا، من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك، أو أنهم اتبعوك ظاهرا لا باطنا.

ومقصدهم من كل ما ردوا به على نبيهم نوح - عليه السلام - أن يصدوا الناس عنه، وأن يجعلوهم لا يفكرون فى اتباعه؛ لأنه بشر مثلهم، ولأن أتباعه من الفقراء السفهاء، الذين يغلب عليهم الكذب فى أقوالهم وفى أفعالهم.

-٦-

وفى موطن آخر نرى المترفين الجاحدين من قوم نوح - عليه السلام - لا يكتفون باتهامه بالضلال، وبأنه كاذب فى دعواه النبوة، وبأن أتباعه من السفهاء وليسوا من العقلاء، وأنه هو وأتباعه يغلب عليهم الكذب.

لا يكتفون بتلك الإشاعات الكاذبة عنه وعن الذين آمنوا به، بل أضافوا إلى ذلك أنهم أشاعوا عنه أنه ما يريد بدعوته لهم سوى التباهى والتفاخر وطلب الرئاسة عليهم، وأنه فوق كل ذلك، هو إنسان مصاب بالجنون وبالخبل فى عقله.

ومن الآيات القرآنية التى صرحت بذلك قوله - تعالى - فى سورة «المؤمنون»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

-٧-

أى : قال نوح - عليه السلام - لقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده : أفلا تتقون الله - تعالى - وتخافون عقوبته بسبب عبادتكم لغيره؟!

ولكن الزعماء من قومه ، أخذوا فى تحذير العامة من اتباع نوح - عليه السلام - وأخذوا فى إشاعة السوء عنه فقالوا لغيرهم : ما نوح إلا بشر مثلكم ، ولكنه اخترع وابتدع هذا الدين الجديد الذى جاءكم به ، ليكون له الفضل عليكم ، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل رسولا لأرسله من الملائكة ، وإن ما جاءنا به ، ما سمعنا بمثله فى آبائنا الأولين الذين نسير على نهجهم .

وإن نوحا - عليه السلام - ما هو - فى زعمهم - إلا رجل به حالة من الجنون والخبل ، وإن عليهم أن ينتظروا عليه إلى وقت شفائه أو موته ، وعندئذ يستريحون منه ومن دعوته التى ما سمعوا بها من آبائهم ا لأولين!!

-٨-

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحا - عليه السلام - بأقبح مواجهة ، حيث أشاعوا عنه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم ، وأنه ليس نبيا ؛ لأن الأنبياء عندهم لا يكونون من البشر ، وأنه قد خالف ما ألفوه عن آبائهم ، ومن خالف ما كان عليه آباؤهم لا يجوز الاستماع إليه ، وأنه مصاب بالجنون ، وأنه عما قريب سيأخذه الموت .

وهكذا الجهل والغرور والجحود ، عندما يستولى على النفوس ، يحول فى نظرها الإصلاح إلى إفساد ، والإخلاص لله - تعالى - إلى حب للرياسة ، والشىء المعقول المقبول ، إلى شىء غير معقول وغير مقبول ، وكمال العقل ورجحانه إلى جنونه ونقصانه .

والخلاصة أن الطغاة من قوم نوح - عليه السلام - قد أشاعوا عنه أنه فى ضلال مبين ، كما أشاعوا عنه أنه من البشر وأن البشرية - فى زعمهم - تتنافى مع النبوة ، كما أشاعوا أن أتباعه من السفهاء الفقراء ، وأنه هو وهم من الكاذبين ، كما أشاعوا عنه